المبحث الأول

• قليل من مستقبليات الإسلام •

أبرز ما طرحه المؤلف في هذا المبحث ، وهو مبحث قصير جدًا ، جاء في صفحتين وبضعة أسطر ، أن المسلمين - الآن - في نظرتهم إلى تاريخ الإسلام وحاضره ومستقبله ، ثلاثة أقسام :

• قسم يرى أن الإسلام في انحدار مستمر ، منذ فجر الإسلام في المدينة المنورة ، استنادًا إلى حديث « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون ، ويحلفون ولا يستحلفون ... » .

• وقسم يرى أن تاريخ المسلمين أتى - ويأتي - على شكل موجات متعاقبة من النهوض والكبوة ، والارتقاء والانحدار .

• وقسم ثالث يرى أن الإسلام في تقدم مستمر ، وهذا الفريق كما يصفه المؤلف يبدو عليه التفاؤل بكل وضوح .

ثم يعقب المؤلف فيقول :

«يستطيع كل من هؤلاء المسلمين الثلاثة أن ينتقي من القرآن والسنة ما يؤسس عليه نظرته » [ص١١].

• تعقيب :

لا نزاع في صحة ما ذكره المؤلف هنا ، ولكن فاته أن يفرق بين أمرين مهمين :

بين الإسلام عقيدة وشريعة ، مبادئ وقيمًا وتوجيهات ، وبين المسلمين

obeikandi.com

من حيث شدة تماسكهم بالإسلام ، وقوة صلتهم به ، أو ضعف ذلك التماسك ، وتلك الصلة .

والتقسيم الذي ذكره موضوعه هو واقع المسلمين، وليس واقع الإسلام.

فواقع الإسلام سام على درجة واحدة ، لم يضعف في حقبة ويقوى في أخرى ، بل إن أوضاع العالم تزيد من استجلاء رونق الإسلام ، وتؤكد شدة حاجة العالم ، وليس المسلمون وحدهم للعمل بالإسلام وقد ألمح إلى هذا «برنارد شو» ، حيث قال:

«إن العالم الآن في أشد الحاجة إلى رجل مثل محمد ﷺ ؛ ليخلصه من الشرور التي فيه» .

و«شو» رمز بمحمد ﷺ للإسلام نفسه ، وعلى هذا فإن الإسلام نفسه في تقدم مستمر فعلاً ، وليس هذا إسرافًا في التفاؤل ، بل هو الواقع .

أما تاريخ المسلمين فهو فعلاً يسير في شكل موجات متفاوتة بحسب صلتهم بالإسلام إقبالاً وإدباراً .

وقد مال المؤلف إلى رأي الفريق الثاني ، القائل بالتفاوت في تاريخ الإسلام [تاريخ المسلمين] ، حيث جارى القول القاضي بتجديد الإسلام في عصور متعاقبة .

فاعتبر الإمام أبا حامد الغزاليّ ، والإمام ابن تيمية ، ومحمد بن عبدالوهاب ، ومحمد عبده مجددين ، كل إمام منهم يأتي على رأس موجة صاعدة في تاريخ الإسلام والمسلمين .

كما يستدل بقوله تعالى: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** على أن تاريخ الإسلام -يعني تاريخ المسلمين- يخضع للمد والجذر.

ونعود فنؤكد أن هذا التقسيم الثلاثيّ مقصور على تاريخ المسلمين وواقعهم ، ولا ينسحب على تاريخ الإسلام نفسه باعتباره منهج الله لإدارة الحياة ، وعلاقة المخلوق بالخالق .

أما التجديد الذي أشار إليه على أيدي الأئمة الذين ذكرهم ، فليس المراد به إحلالاً وتبديلاً في قيم الإسلام وأصوله ، بل المراد به القدوة الحسنة في العمل بالإسلام ، والتذكير بما نُسي من توجيهاته ، وتنقية الإسلام مما لحق به مما هو ليس منه من البدع والخرافات .

• حركات الصعود والهبوط •

ليس في تاريخ الإسلام حركات صعود وهبوط ؛ لأن الإسلام في حالة صعود دائمًا منذ أنزله الله، لم يهبط في زمان حتى يصعد في زمان آخر.

وإنما حركات الصعود والهبوط تحدث في واقع المسلمين ، وهذا حق لا ننازع فيه ، وشواهده من التاريخ واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار، وهي حركات صعود وهبوط متفاوتة ، وليست على نمط واحد .

كان ذلك في عصور الدولتين الأموية والعباسية، وما تلاهما من دول أو دويلات .

• فسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين في القرن الحادي عشر الميلاديّ كان حركة سقوط غائرة ومؤلمة .

• وتحرير بيت المقدس على يد الناصر صلاح الدين كان حركة صعود متألقة، وانتصارًا خالدًا على مدى الدهر، وسوف تظل موقعة حطين، التي قهر فيها صلاح الدين جيوش الفرنجة، وطردهم من القدس عام ٥٨٣ هـ ، تاجًا متألقًا في تاريخ المسلمين الوسيط.

• وسقوط بغداد على أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ، كان حركة هبوط سحيقة .

• وهزيمة التتار في موقعة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ بزعامة الملك

المظفر « قطز » ملك مصر في ذلك الحين حركة صعود شامخة في تاريخ المسلمين العسكريّ ، وعمل خالد على مدى الدهر صنعه الجيش المصريّ المسلم ، وما يزال الناس يذكرون مقولة « قطز » : «وا إسلاماه» ، وهو يواجه جيوش التتر في أثناء هجمة لهم خشي عقباها .

● والانتصارات الرائعة التي أحرزتها دولة الخلافة العثمانية بتوحيد الشعوب الإسلامية ، وفتح الكثير من الأقطار الأوربية ، وصنيعها أضخم قوة في العالم ، كانت حركات صعود مذهلة ، لا حركة واحدة .

● وتآمر الغرب الصليبي على تفتيت أواصر تلك الوحدة حركة هبوط مزرية ، كادت تدفن الأمة وهي حية تحت أنقاض الهزيمة القاتلة .

● الاحتلال الأوروبي (الاستعمار) للبلاد الإسلامية والعربية عقيب الحرب العالمية الأولى كانت حركات هبوط مشينة،لم يحدث لها مثيل في التاريخ .

● وقيام الثورات في الأوطان العربية للحصول على الاستقلال وطرد المغتصبين عنها كان حركات صعود مظفرة ، ضمدت كثيراً من الجراح الغائرة في كيان الأمة، وحررت رقابها من «الرق » المهين ، الذي منيت به حينًا من الدهر .

● واغتصاب إنجلترا لشبه القارة الهندية ، والأضرار التي ألحقتها بالمسلمين هناك كان سقطة هبوط ما تزال آثارها باقية حتى الآن .

● وقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ م ، ومحاولة العبث بمصالح البلاد كان حركة هبوط اضطرارية لم يطل عارها .

● أما إجلاء المصريين للجنود الفرنسيين عام ١٨٠١م فكان حركة صعود سريعة محت ذلك العار من مصر الإسلام.

● واحتلال إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢م كان حركة هبوط موجعة ، استمرت شدة وطأتها آماداً طويلة .

obeikandi.com

• أما إجلاؤهم عن مصر فهو بلا شك حركة صعود عملاقة ، ولكن الآثار السيئة التي خلفها الاحتلال الإنجليزي في مصر ما تزال باقية إلى الآن، وقد تأصلت في مجالات الفكر المضاد لمصالح مصر ، ومصالح الأمة، ونجحت في إيجاد عملاء لها في قطاعات كثيرة في الحياة ، وأشدها خطرًا «الأقلام العميلة» ، التي تستهدف الإسلام والنيل منه ، مع إحلال الحضارة الغربية محله .

وبقيت بعد ما تقدم حركتا هبوط فاجعتان ، لم يحدث منهما نهوض حتى الآن :

إحداهما : ذهاب دولة الإسلام من الأندلس ، وما حل بالمسلمين هناك من فتك وتنكيل .

والأخرى : إقامة دولة لليهود في قلب العالم العربيّ ، وتوظيف الدول الصليبية الكبرى هذه الدولة وسيلة إضعاف للعالم الإسلاميّ كله ، وليس العرب وحدهم .

والأمل الآن معقود على الصحوة الإسلامية العالمية ، وإحساس المسلمين في كل بقاع الأرض باستعادة ما كان لهم من عز ومجد .

وهي حركة صعود واعدة ، وإن كانت لها كبوات ، وإن قامت أمامها عراقيل ، ولكن الزمن كفيل بتفادي هذا كله بإذن الله .

إذن فالنظريات الثلاث التي رصدها الأستاذ مراد هوفمان لا ينطبق مدلولها على الإسلام نفسه ، وإنما مجالها هو تاريخ المسلمين .

أما الإسلام فهو الإسلام دائمًا ، لا يعرف الهبوط مهما كان حال المسلمين ، فهو صاعد أبدًا ، مزدهر أبدًا ؛ لأنه صنع الله ، ومن أصدق من **الله قيلاً** ؟.

• • •